

العلوم الاجتماعية بين العالمية والخصوصية (مقارنة نقدية)

د. فضيل دليو*

معهد علم الاجتماع جامعة قسنطينة

ملخص

تمثل هذه المحاولة مقارنة نقدية لهيمنة النمط المعرفي الغربي في مجال العلوم الاجتماعية عموما وعلم الاجتماع خصوصا. توضح من خلالها عدم صلاحية هذا النمط للتعميم لقصور إطاره المعرفي ومحدودية منهجيته.

Résumé

Cette étude est une approche critique de l'hégémonie des paradigmes occidentaux dans les sciences sociales en général et la sociologie en particulier.

Elle tente d'analyser ses limites théoriques et méthodologiques.

مقدمة

تتمحور إشكالية العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة حول نقطتين أساسيتين: تتمثل الأولى في النظام العقدي الذي يشكل إطارها المعرفي، أما الثانية فتتمثل فيما يقوم به الباحث الاجتماعي من جهود فكرية وبحوث ميدانية حول الإحتياجات و المتطلبات المجتمعية داخل هذا الإطار نفسه.

أما الأهمية المتزايدة لهذه العلوم في العصر الحديث فترجع أساسا لكون موضوعها وهدفها هو الإنسان كفرد وككائن اجتماعي بماضيه وحاضره ومستقبله، مما أدى إلى تلهف أصحاب القرار في مختلف المجالات على آراء وتحليل الباحثين الاجتماعيين وخاصة بعدما ادعى هؤلاء لأنفسهم الموضوعية والعلمية وأثروا بحوثهم بالمناهج الكمية المستقاة من العلوم الطبيعية بغية

* استاذ محاضر، معهد علم الاجتماع، جامعة قسنطينة - الجزائر.

فرض مصداقيتهم العلمية في طرح الإشكاليات والحلول.

هيمنة العلوم الإجتماعية الغربية

كما هو شائع بين المهتمين بالعلوم الإجتماعية - هواة كانوا أو متخصصين - فإن هذه العلوم التي تشكل وتبلور طرق تفكيرنا وسلوكنا اليوم، نشأت وترعرت في بيئة الإنسان الغربي (بالمفهوم الحضاري وليس الجغرافي) وأن الإطار المعرفي لهذا الأخير هو السائد والمهيمن في الفكر والبحث دون غيره من أطر الحضارات الأخرى التي تتميز عنها أساسا بعدم حصرها للمعرفة في مجالي الحس والتجربة. تجدر الإشارة هنا إلى "وسطية" الحضارة الإسلامية التي تتميز بالجمع بين المادة والروح، الوحي والعقل وحضارات الشرق الأقصى (الهندية، الصينية...) التي يطغى عليها الجانب الروحي (1).

هذا فيما يخص ركيزتها المعرفية، أما منهجيتها فهي تقوم أساسا على التمييز بين الموضوعية والذاتية، بين الملاحظ والشعور، بين عالم الشهادة وعالم الغيب... تميزا إقصائيا. وهذا على عكس الحضارات الأخرى سابقة الذكر.

إن هذه الثنائية - القطيعة بين "الواقع" و "القيمة"، بين "الموضوع" و "الذات" تمثل الميزة الرئيسية لهذه العلوم بل لأي نوع من أنواع المعرفة الغربية، بحيث أننا نجد أن نظرية المعرفة السائدة الآن نفسها، والتي هي نواة أي تصور عالمي، تقوم على ذلك.

موشور حضاري "آخر":

أما الحضارة الإسلامية - والتي سبق وأن وصفناها بالوسطية - فهي تقع بين الحضارة الغربية "المادية" التي تغلب عليها روح الديانة اليهودية، والحضارة الشرقية الآسيوية "الصفراء" (بالإضافة إلى الحضارة المسيحية الأصلية) اللتين يطغى عليهما الجانب الروحي.

ومن ثم فإذا نظرنا إلى هذه العلوم بموشور حضاري آخر مركزه الإسلام، فستنتج لدينا موجّهات ومحددات متميزة أخرى، تحدد لنا - في هذه الحالة - حقيقة وكيفية المعرفة إسلاميا. أي "الممكن" - بمستحسنه ومستتهجنه - و "الواجب" و "غير الممكن" إسلاميا. كما تقرر مصادر وحدود ونمط الفكر والبحث وتوجهاتها المختلفة، ومن ثم يتم تحديد نوع المجتمع المراد بناؤه. وما دام هذا النظام العقدي الموجه ثابتا وأساسه الوحي الإلهي، فإن إطاره المعرفي يقي من المزالق والمناهات العقدية، الفكرية والسلوكية بتحديدته عن بصيرة "مالا يمكن معرفته"، ويلبي الإحتياجات والمتطلبات المجتمعية بتحديدته "ما يجب معرفته" (2).

نقد نمط التفكير الغربي

مما لا شك فيه أن الحضارة الغربية خطت خطوات عملاقة في المجالات المادية، وما مظاهر المدنية الحديثة إلا خير دليل على ذلك. ولكنه من المؤكد أيضا، أنها أخفقت فيما عدا ذلك مما يتعلق بالقيم والأخلاق والنفس عموما، فكتلتها البشرية تسبح في فراغ تعددت إفرازاته النفسية الاجتماعية بل والمادية أيضا:

فهي تلغي إرادة الإنسان وقيمه و تهدد الوجود البشري بل الكون كله بالتدمير الشامل. كما ترهن مستقبل البشرية ببعديه الدنيوي والأخروي.

إن عدم ملائمة نمط التفكير في العالم الغربي لمستقبل البشرية جمعاء لم يعد قناعة تقتصر على منتقبي حضارة مغايرة له، بل صدرت وتصدر عن ثلثة من مفكري العالم الغربي نفسه من أمثال: "فايربند، هيوم، كابر، تراينر..." الذين يفسرون المشاكل الحالية والمتوقعة بالقيم المادية السائدة ونمط التفكير الأحادي الذي تولدت عنه معضلة ذات أبعاد فكرية وأخلاقية وروحية تمثلت أساسا في الإستنزاف الجائر للطاقات البشرية والموارد الطبيعية والإخلال بالنظام البيئي برمته (3).

وقد بدأت تنمو هذه التلثة من المفكرين الرافضين للنمط المعرفي السائد نموا مطردا جعلها تشكل حركة فكرية تمثل أهم الإتجاهات المعاصرة في مجال الدراسات الاجتماعية، بل الوحيدة التي تدعو إلى نوع من "القطعية المعرفية" يعبر عنها البعض بـ "الحركة المابعدية" (4). إن حضور هذه الحركة المابعدية لا يقتصر على علم الاجتماع فحسب بل إن تأثيراتها العقيدة والفكرية والمنهجية قد شملت حتى الآن معظم مجالات المعرفة وفروعها - بما فيها الفروع الطبيعية - وخاصة أطرها المعرفية المتمثلة فيما يسمى بفلسفة العلوم أو نظرية العلوم أو الإبستمولوجيا.

وسنجمال مؤاخذات هذه الحركة التمردية على النمط المعرفي الغربي السائد، مطعمة بالطرح الإسلامي، فيما يلي:

- المبالغة في الموضوعية إلى حد تقديسها، مما جعل أحدهم " فروم " ينعت العلاقة بين الباحث و موضوع بحثه بـ " النكروفيليا " (وهي الشغف المفرط في القتل للتجميد ثم الحب) (5).
- إن عمل الباحثين الاجتماعيين ينطلق منذ البداية من خلفيات أيديولوجية وأنظمة لامحيد عنها، وبالتالي فهو يقوم ببناء الحقيقة لكي تتلائم مع الأفكار المسبقة المؤطرة لها وليس العكس.
- فهي ليست حيادية كذلك، لأنها تستقرأ من خلال التصور العالمي السائد والرؤية الفكرية والإدراك الحسي والفكري لحضارة هذا التصور دون غيره من التصورات .
- إن المعرفة ليست حيادية بل تستقرأ من واقع " زمكاني " محدد (في هذه الحالة ، غربي)

ومن ثم فهي لا تصلح للتعميم ، لأن المعطيات التاريخية والاجتماعية والثقافية تختلف بالضرورة من مجتمع لآخر. ومن ثم فإن الحلول الفنية التي تقدمها هذه المعرفة ينبغي أن تتكيف مع نفسية البلد الذي ستطبق فيه ومع مرحلة تطوره. ففي الميدان الإقتصادي مثلاً، يؤكد "مالك بن نبي" بأن محاولة بعض الساسة في البلدان الأفريقية الآسيوية تطبيق حلول فنية يقترحها بعض الاختصاصيين الأوروبيين عديمة الجدوى، لأنها لا تتفق مع عناصر (الأنما) فيها (6). وعليه فإنه لا يعقل أن توضع الحلول والمناهج دون مراعاة ذلك. فاستيراد الحلول من الشرق أو الغرب يعتبر تضییعاً للجهد والوقت ومضاعفة للداء لأن "علاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي في حدود الدورة التي ندرسها. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية" (7).

- إن المعرفة الغربية بالذات تعوق التقدم لأنها - حسب فايربند - "تحصر المعرفة في المحسوس والمجرب و لأن المبدأ الوحيد الذي لا يعيق التقدم هو: "كل شيء جيد"، وأن انتشار النظريات مهما كان نمطها مفيد لتطور المعرفة ... وأن العقلاني لا يمكن أن يكون عالمياً، وأن غير العقلاني لا يمكن اختزاله" (8) (*).

- إن المعرفة الغربية - حسب س. م. النقيب العطاس - تقوم على منهجية تختزل العلم في عملية لا متناهية من تطور الإشكاليات والحلول... بعضها يلغي بعضاً: "إن البحث شره والرحلة أبدية لأن الشك يسيطر دائماً ومن ثم فإن ما يطلب لا يدرك في الواقع أبداً، وأن ما يكتشف لا يلبي أبداً الهدف الحقيقي" (9). وهو الأمر الذي أثر سلباً على نتائج البحث في الحقل المعرفي الغربي، وجعل - في تقديرنا - الحضارة الغربية تعاني من توتر داخلي مزمن نتيجة طبيعة مقوماتها غير المتجانسة وإفتقارها لبوصلة معرفية ثابتة لا يوفرها إلا الإطار المعرفي الإسلامي عن طريق "الوحي" و "العقل" الموجهين له توجيهها متجانساً ومتكاملاً. إن هذا التكامل والانسجام هو المقصود من المقولة المشهورة للعلامة ابن تيمية: "موافقة صريح المعقول لصريح المنقول" جازماً بأن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الوحي، فالرسل لا يخبرون بمحالة العقول بل بمحارات العقول ... أو بما يعجز العقل عن معرفته (10). إن هذا التوجيه يمثل في حقيقة الأمر أساس التمايز بين الحقلين المعرفيين الإسلامي والغربي بما فيه حركاته التمردية.

خلاصة القول، أن هذه الحركة المتمردة تدعو إلى التجاوز المطلق لكل القيم الثابتة والقناعات الراسخة في العالم الغربي، وإلى تجاوز الحداثة بكل مضامينها المعرفية والوجودية والسلوكية... ولكن الملاحظ أن راديكاليته هذه لم تتوج بقطيعة معرفية حقيقية تخرجها من النمط المعرفي الذي نشأت فيه. فأبرزت تيارات فكرية مختلفة ومتناقضة "لاتتفق في غالب الأحيان إلا على تجاوز كل

ما هو قائم مهما كان نوعه: الإتجاه ما بعد الماركسي، ما بعد الواقعي، ما بعد الوضعي، ما بعد العقلاني، ما بعد السلوكي، ما بعد البنيوي، ما بعد الشمولي، ما بعد الحداثة... (11) ما بعد المابعد... الخ.

إن شمولية هذا الطرح جعلته متاخلا و غير متجانس بسبب اختلاف مقوماته الفكرية التي يعج بها نفس النمط المعرفي ولأنه في الأصل عبارة عن ردود فعل عن مختلف الأزمات الفكرية والسياسية والأخلاقية والإنسانية والبيئية التي يعاني منها العالم الغربي؛ وليست حركة أصيلة نابعة من وسط معرفي مغاير. لذلك وقعت في مزالق نظرية ومنهجية دفعت بها إلى تجاوز كل ما هو قائم دون تمييز والسعي وراء المجهول دون محددات سوى التمرد المطلق. ومن ثم فهي في رأينا مجرد طفرة من طفرات النمط المعرفي الغربي نفسه، تهتم بمعالجة الآثار دون الأسباب. والحقيقة أنه لا يمكنها غير ذلك حتى ولو أرادت بحكم منشأها والوعاء المعرفي الذي تغرف منه.

وذلك بالرغم من أنها تصدر أحكاما حسيمة على غرار "ف. كابران" (12): "إن المبادئ الروحية الشرقية تقدم إطارا فلسفيا للفيزياء الأكثر تطورا"، "سوني سايتي" (13): "إن خرافة العلم الحيادي انتهت" أو "ليف لوبلوند" (14): "لا يمكن لأي نبذة مفيدة أن تنمو وتزدهر في جميع المناطق الجغرافية والظروف المناخية..." وإن حدث ذلك فسيكون على حساب النوعية والمردودية، وهو ما يوصفه "ج. أوستري" (15) بـ "التشويه" في مجال التنمية.

إن التفوق الغربي الذي ظهر في القرن السابع عشر وتأكد في القرن الثامن عشر جعل المجتمع الغربي يعتبر نفسه مصدرا للحقائق (16). والغريب (أو المنطقي إذا أخذنا بعين الاعتبار شروط قابلية التبعية المتوفرة) أن العالم الإسلامي بعامة وخاصته (والذي كان يسيطر على زمام التصور العالمي للإنسان والمجتمع والكون لقرون مضت) قد انساق معظمه وراء بريق الحضارة الغربية بل تطبع بمبادئها ومنطقاتها أيضا، وكأن قوة النمط المعرفي السائد من جهة وجمود فكرية وعجزهم الإبداعي من جهة ثانية غيبا عنه الدور الرئيس الذي تلعبه المعرفة في صياغة الفكر والسلوك الإنسانيين من ناحية و "إمكانية وكيفية" المعرفة إسلاميا من ناحية أخرى.

خاتمة

□ إذا كان هذا هو موقف نخبة من مفكري الحضارة الغربية نفسها، فنرجو أن يكون ذلك دافعا إضافيا (إلى جانب الدافع العقدي الأصلي) يمكن "الوسطيين" (17) من كسر قيود التقليد الأعمى. هذا من جهة، كما نتمنى، من جهة أخرى، أن لا ينبهروا ببريق هذا النقد الراديكالي فينساقوا وراءه خطوة خطوة، ليصبحوا "ما بعديين" أكثر من "فايربند" نفسه وغيره من

المتبردين الجدد... كما كان المقلدون من أسلافنا (وبعضهم لا يزال) ماركسيين أكثر من ماركس وأيدولوجيته أو داروينيين أكثر من "داروين" وتطوره أو فرويديين أكثر من "فرويد" وبيولوجيته الاجتماعية أو كانتيين أكثر من "كانت" وتصوره، إلخ. (18)، بدلا من أن:

- يقاربوا "إمكانية وكيفية" المعرفة مقارنة متميزة تتبع من إطارهم المعرفي الحضاري.
- يخضعوا جميع المعارف لهذا الإطار الفريد من حيث مصداقية مصدره المحوري: الوحي الإلهي.

- يعملوا على تطوير بدائل معرفية تخدم متطلبات المجتمعات الإسلامية المعاصرة. وكل ذلك ممكن، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض الإسهامات الأولية الجادة التي أنجزت منذ بداية هذا القرن الهجري في مجال إسلامية المعرفة عامة والعلوم الاجتماعية خاصة. ومنها نذكر على سبيل المثال محاولات كل من: س. ح. نصر (لقاء بين الإنسان والطبيعة 1968)، علي شريعتي (علم اجتماع الإسلام 1979، والعودة إلى الذات 1986)، الفاروقي (أسلمة المعرفة 1982)، إ. بايونس وفريد أحمد (مقدمة في علم الاجتماع الإسلامي 1983)، العطاس (نقد تغريب المعرفة 1985) (19).

الهوامش والمراجع

- 1- Rene Guenon : La crisis del mundo moderno, Barcelona, Ebelisco, 1982. p. 22
- 2 - ضياء الحق سردار: أسلمة العلوم أم تغريب الإسلام، مجلة " Inquiry " ، 1984، ص. 02.
- 3 - سعيد محمد أبو سعد: نحو تنمية عربية معتمدة على الذات، مجلة المستقبل العربي، يوليو 1991، ص ص 69 - 70 .
- 4 - عبد الخالق عبد الله: الإتجاهات الجديدة والمستقبلية في علم السياسة. مجلة المستقبل العربي، ن . م . ، ص ص . 30 - 31 .
- 5 - ضياء الحق سردار: مرجع سابق، ص. 03 .
- 6 - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، الجزائر، دار الفكر ، ط. 3، 1986، ص. 45.
- 7 - مالك بن نبي: شروط النهضة، دمشق، دار الفكر، ط. 3، 1969، ص ص. 70 - 71.
- 8- Paul Feyerabend : Contre la méthode, in Levy Leblond : L'esprit de sel, Paris, Fayard, 1984, p. 137.
- * - إن هذا الطرح يعتبر، في نظرنا، تطرفا في الإتجاه المعاكس لأبد من ترشيده. وهو ما سنبرزه في النقطة الموالية.
- 9 - ضياء الحق سردار: مرجع سابق، ص. 06.
- 10- ابن تيمية : منهاج السنة النبوية، بيروت، دار الكتب العلمية، ج. 1، ص. 83.
- 11 - عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق. ص. 31.
- 12- Levy Leblond : L'esprit de sel, Paris, Fayard, 1984, p. 133.
- 13- Ibid. p. 09.
- 14- Ibid. p. 193.
- 15- J. Austy : Conférence sur le Développement (1. Colloque des Anciens du CEDIMES, 2 juin 1987). Voir...
- مطبوعات المكتب الجامعي للطلبة - قسنطينة، ماي 1989 ، ص. 01.
- 16- Ibid . p. 01.
- 17 - قال تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (سورة 2 ، الآية 143).
- 18- ضياء الحق سردار، مرجع سابق ، ص ص. 05 - 06.
- 19- للاستزادة، أنظر القائمة الببليوغرافية المنتقاة لمحي الدين عطية تحت عنوان: أسلمة العلوم السلوكية، الخرطوم، جامعة الخرطوم، 1987.